

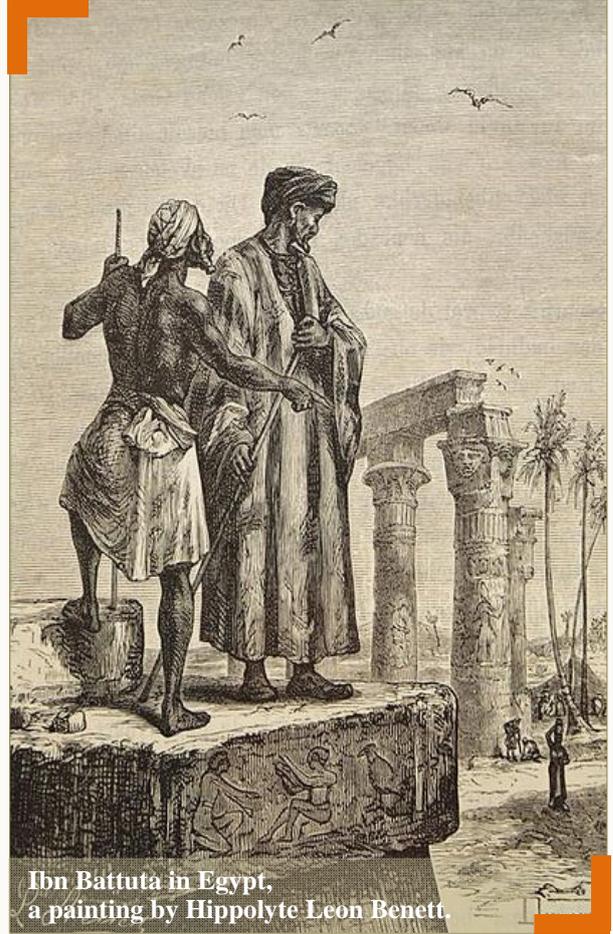
ملخص

تكاد تكون رحلة ابن بطوطة الرحلة الأولى في العالم، بتسجيلها حضوراً قوياً في الأوساط العلمية بمختلف مناطق العالم، ولذلك كانت محل أبحاث ودراسات متعددة، وفي الوقت ذاته واجهت انتقادات شديدة سواء من المتقدمين أو المتأخرين، من أجل ذلك ولأغراض أخرى ارتبطت بالهيمنة الاستعمارية على العالم الإسلامي منذ بداية العصور الحديثة اهتم المستشرقون بنشر أجزاء الرحلة وترجمتها، فاخذوا يبحثون عنها وعن نسخها المختلفة إلى أن تمكن المستشرق السويسري "بوركهارت" من الوصول إلى مختصر للرحلة في أعقاب المهمة التي كلف بها سنة ١٨٠٩م، كما تمكن المستشرق "سترن" وهو بالمشرق سنة ١٨١٠م من الحصول على مختصر آخر للرحلة، وهكذا استمرت جهود المستشرقين في جمع النسخ إلى أن تمكن كل من "ديفريميري" و"سانكينتي" ما بين سنة ١٨٥٣ وسنة ١٨٥٨م بتكليف من الجمعية الأسيوية من استكمال جمع النسخ المتبقية مما حصل عليه الفرنسيون بعد أن فرضوا هيمنتهم على الجزائر، حيث نشر الاثنان الرحلة مترجمة في أربع مجلدات، وأصبحت الرحلة في متناول العالم الغربي وكذلك العربي والإسلامي، ثم شرعت عملية ترجمة الرحلة إلى لغات عديدة، وهكذا تمكن المستشرقون من نشر الرحلة في أوساط عديدة دون أن تكون أمامهم الفرصة والإمكانيات المعرفية اللازمة لتحقيق الرحلة من جميع الجوانب.

مقدمة

اهتم المستشرقون الأوروبيون اهتماماً بالغاً بالرحلات التي خلفها أعلام الفكر والثقافة من العرب والمسلمين لا سيما أهل المغرب العربي على وجه الخصوص لأنهم تفوقوا على غيرهم في مجال الرحلة الحجازية، ولأن الرحلة عمومًا بغض النظر عن الغرض منها تتجاوز الحدود الجغرافية التقليدية، وهي بمثابة الموسوعة التي ينهل منها كل الباحثين من اختصاصات متباينة، خاصةً إذا تعلق الأمر برحلة شيخ الرحالة المغاربة ابن بطوطة، والتي تضمنت أخباراً هامة عن القارات الثلاث إفريقيا وأوروبا وآسيا.

ثم جاء تحقيق الأكاديميين المغاربة المعاصرين متأخرًا بزمّن طويل عن عمل المستشرقين في هذا المجال، لظروف تاريخية اتسمت بالهيمنة الاستعمارية الأوروبية على العالم العربي والإسلامي، أي أن التحقيق المغربي جاء تنويجاً لجهود المستشرقين في النشر والترجمة. لقد تجاوزت أصداء وجود رحلة لابن بطوطة نطاق بلاد المغرب، عندما روج لها ولأخبارها ابن خلدون في مقدمته والتمجروتي في رحلته، وكذلك العلامة أحمد المقري في كتابه الشهير نفع الطيب، فانتشرت أخبار الرحلة في البلاد المشرقية، باعتبار أن الأعلام الذين روجوا لها كانوا قد مروا بالمشرق، أو أنهم قضاوا ما بقي من حياتهم في المشرق العربي أمثال ابن خلدون والمقري.



Ibn Battuta in Egypt, a painting by Hippolyte Leon Benett.

التحقيق الاستشراقي لرحلة ابن بطوطة

فريقي محمد الكبير

أستاذ مساعد - قسم التاريخ
جامعة بشار
الجمهورية الجزائرية



الاستشهاد المرجعي بالمقال:

فريقي محمد الكبير، التحقيق الاستشراقي لرحلة ابن بطوطة - دورية كان التاريخية - العدد السابع عشر؛ سبتمبر ٢٠١٢، ص ٤٦ - ٤٨.

www.kanhistorique.org

ISSN: 2090 - 0449

خمس أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ - ٢٠١٢

بداية إهنام المسنشرين بنحقيق الرحلة

أما اهتمام المستشرقين بالرحلة فقد بدأ منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، والملفت للانتباه أن ذلك الاهتمام تزامن مع ظهور الحركة الاستعمارية الحديثة التي استهدفت العالم العربي والإسلامي أساساً، من خلال انطلاق الحملات الاستطلاعية والاستكشافية التي اعتمدت على الرحلات السابقة كدليل في معرفة جغرافية العالم الإسلامي ومسالكه وطرقه ...، ولم يقتصر اهتمامهم برحلة ابن بطوطة فحسب، بل وجدنا منهم من اهتم بابي عبيد الله البكري كأمثال البارون دوسلان، ومن اهتم بابن جبير كأستاذ رايت، وكأنما بعث الله لكل تراث من يهتم به من هؤلاء أو يدل على أماكن وجوده في مختلف جهات الدنيا.^(١)

من أولى الدلائل على اهتمام المستشرقين بالرحلة الرسالة التي عثر عليه الباحث التازي ضمن الوثائق التي كان يحتفظ بها الدبلوماسي النمساوي "دومباي" الذي كان يعمل في المغرب.^(٢) لقد تضمنت تلك الرسالة المؤرخة ب ٢٦ محرم ١٢٠٠هـ / ٢٩ نوفمبر ١٧٨٥ خبراً من "علي الافلاوي" حول رحلة مختصرة لابن بطوطة انتسخها أحد المغاربة لحساب الدبلوماسي المذكور، وبذلك تكاثفت المساعي للبحث عن النسخ الأصلية للرحلة، حيث عثر المستشرق السويسري "بوركهارت عقب المهمة التي كلف بها سنة ١٨٠٩م على نسخة منها، كما عثر سيزن بالمشرق سنة ١٨١٠م على مختصر آخر للرحلة، ثم توج هذا العمل بعد عشر سنوات بجهود المستشرق الألماني "كوسكارتن" بمناسبة ندوة أكاديمية سنة ١٨١٨م، حيث نشر مقالة تحتوي على نص مصحوب بالترجمة لثلاث قطع من ذلك المختصر، ولقد تمكن أحد الجغرافيين من التعرف على مسالك السودان اعتماداً على المقاطع التي نشرها كوسكارتن.^(٣) مع العلم أن المقاطع الثلاث تمثل إحداها رحلة ابن بطوطة إلى إفريقيا، والثانية إلى بلاد فارس، والثالثة إلى المالديف، والملاحظ أن "كوسكارتن" لم يتمكن من استكمال مشروعه في نشر ما تبقى من ذلك المختصر.

لقد اقتصر عمل المستشرقين في البداية على جمع ونشر مختصرات وأجزاء من الرحلة، أما عملهم في تحقيق ونشر السفريين الأول والثاني المشهورين من الرحلة، فقد تجلى في عمل المستشرق البرتغالي الأب جوزي دي سانطو انطونيو مورا، عندما قام سنة ١٧٩٧م بترجمة السفر الأول من الرحلة الأصلية إلى البرتغالية، ونشرته الأكاديمية في لشبونة سنة ١٨٤٠م، ولقد اعتمد في ترجمته على مخطوط كان قد اشتراها أثناء إقامته بفاس ومرافقته للسفارة البرتغالية كترجمان إلى بلاط السلطان المغربي المولى سليمان سنة (١٧٩٧ - ١٧٩٨م). لقد اسقط "مورا" من ترجمته للرحلة الأبيات الشعرية فلم يترجمها، وأهمل ما روي عن ابن جبير، بل وحذف بعض المقاطع بشكل كامل، وقد برر عمله هذا بقوله: "إن اللائحة واسعة ومزعجة"^(٤)، لقد بلغ ما حذفه من الرحلة ربع السفر الأول،

والجدير بالذكر؛ أن عمل المترجمين اللاحقين لم يختلف عن صنيع الأب مورا.

نحقيق الرحلة ونقدها

إن أهم عمل قام به المستشرقون في نشر وترجمة الرحلة بشكل كامل في كل أسفارها المعروفة هو ذلك الانجاز الذي قام به كل من "ديفريميري"، و"سانكينتي" ما بين سنتي ١٨٥٣ و١٨٥٨م بتكليف من الجمعية الآسيوية والمتمثل في نشر سفري الرحلة كاملين، ومترجمين بالفرنسية في أربع مجلدات، حيث أصبحت الخزانة الملكية بباريس تتوفر على نسخ مخطوطة للرحلة، مما حصل عليه الفرنسيون بعد أن فرضوا هيمنتهم على الجزائر. بعد هذا الانجاز تيسرت سبل ترجمة الرحلة إلى اللغات الأخرى، فظهرت الترجمة الانجليزية للرحلة، والتي قام بها السير هاميلتون جيب، مصحوبة بتعليق مفيدة جداً، وبخرائط وصور ورسوم، ولقد ارتكزت هذه الترجمة على النسخة الفرنسية، فصدر الجزء الأول منها سنة ١٩٥٨م، والثاني سنة ١٩٦٢، ثم الثالث سنة ١٩٧١م، ولم يتمكن جيب من إتمام الجزء الرابع لأن الوفاة أدرته سنة ١٩٧١، إلا أن جامعة كامبريدج تكفلت بترجمة الجزء الرابع.

ومن المستشرقين الذين استفادوا من عمل جيب المستشرق الروسي كراتشكوفسكي (ت ١٩٥١) في كتابه "تاريخ الأدب الجغرافي العربي". حيث قال عن الرحلة ابن بطوطة: "أنه منافس خطير لمعاصره الأكبر منه سناً "ماركو بولو"، ومن الطبيعي أن ابن بطوطة الطنجي كان له إحساس فطري ذاتي بطروف حضارة العالم الذي يصفه أكثر مما كان لدى ماركو بولو البندقي، وأن وصف الرحلة المسلم لخط سير رحلته كان ادعى إلى الثقة مما عليه الحال مع معاصره المسيحي."^(٥)

إن ترجمة الرحلة إلى الانجليزية أعطى لها نفساً جديداً، ودفعاً قوياً في ميدان البحث، فترجمها الدكتور "هانس فون مزيك" إلى الألمانية، كما ترجمها "ايفان ريبك" إلى اللغة التشيكية، وترجمها إلى الإيطالية "كابري يلي" سنة ١٩٦١م، وترجمت إلى اللغة التركية على يد لجنة وزارة المعارف أواخر العهد العثماني في خمس مجلدات، وترجمت أيضاً إلى الفارسية من قبل الدكتور "محمد علي موحد"، وترجمها إلى السويدية "هيرمان المكسيت"، هذا إضافةً إلى ترجمتها إلى الهندية واليابانية والصينية والاسبانية.^(٦) واللافت أن معظم هذه الترجمات تصحب بتعليقات مفيدة، كما أن بعض هؤلاء الأساتذة المترجمين وضعوا مقدمات لكل جزء من أجزاء الرحلة من أجل تعريف القارئ الأجنبي بأحوال العالم الإسلامي وثقافته وتقاليده.

لقد وجه المستشرقون انتقادات وجهية للرحلة، ومن أشهرهم السير "هاميلتون جيب"، والعلامة التشيكي "ايفان هريك"^(٧)، وكذلك الباحثان الفرنسيان "فانسان مونطي"، و"صطيفان بيرازيموس" وغيرهم، حيث تتبعوا الرحلة عبر عدد من المقاييس والمعايير، مثل ضبط التواريخ التي يوردها ابن بطوطة مقارنة

بدراساتهم النقدية للرحلة، ولذلك تيسرت السبل أمامه للقيام بإنجازه المتميز بشهادة منتقديه.

بأسماء الأيام التي يذكرها: يوم الأثنين مثلاً، وهل بالفعل يتطابق مع تاريخ اليوم السابع عشر من رجب سنة ثلاث وسبعمئة الذي ذكر تاريخاً لميلاده، وهناك حديث ابن بطوطة عن شدة البرد في شهر قمري (شوال مثلاً)، في حين أن هذا الشهر كان يوافق جوان أو جويلية الذي نعتاد فيه الحر.^(٨)

وهناك من شكك في زيارة ابن بطوطة للصين أمثال الدبلوماسي الشهير "كابرييل قيران"، إلا أن كثيراً ممن درسوا الرحلة كانوا مقتنعين بأن الرجل زار فعلاً بلاد الصين وما جاورها. والمجال لا يتسع لذكر كل الانتقادات الموجهة للرحلة، والأمر يحتاج إلى دراسة أخرى تعالج حقيقة تلك الانتقادات لأن ثمة معطيات كثيرة محيطة بالرحلة أثرت في مصداقيتها، وفي مقدمتها أن التقييدات التي جمعها ابن بطوطة قرابة ثلاثين سنة قام ابن جزي بتلخيصها في أقل من ثلاث أشهر، إلى جانب المشاكل الناجمة عن ترجمة الرحلة إلى لغات أخرى مما شكل لبساً لدى المستشرقين. ورغم كل هذه الجهود المبذولة من طرف المستشرقين في نشر أجزاء الرحلة وترجمتها والتعليق على ما ورد فيها، إلا أن هناك العديد من المؤاخذات التي تسجل على عمل هؤلاء: منها أنهم ينسبون مقدمة الرحلة لابن بطوطة، ولكنها في الواقع هي لابن جزي، إلى جانب أخطاء كثيرة في أسماء الأعلام والأماكن، وبعض المعاني العميقة التي ترتبط بأصول وقواعد اللغة العربية من جهة، ومن جهة أخرى تتصل بأعراف وتقاليد أهل المغرب العربي، ولقد ذكر التازي العديد من الأمثلة عن تلك الأخطاء والنقائص.^(٩)

خاتمة

لقد ظهرت مبادرة المستشرقين لتحقيق رحلة ابن بطوطة في ظروف تاريخية اتسمت بالركود والتخلف الفكري والحضاري بالنسبة للعالم الإسلامي، لذلك كان هؤلاء المستشرقين هم السباقين إلى جمع نسخها وتحقيقها ونشرها، وكذلك ترجمتها من أجل تحقيق أغراض استعمارية بالدرجة الأولى، ومع ذلك فإن هذه الحركة الاستعمارية كانت حافزاً كافياً لتحريك جيش من الباحثين والمحققين يوجهون كل جهودهم وأوقاتهم وحتى أموالهم للبحث في تراث الشرق الإسلامي، فتوصلوا بذلك إلى تحقيق إنجازات علمية معتبرة على مستوى تراثنا، لم نصل إليها في أي مرحلة من مراحل تاريخنا حتى في عهد ازدهار العلمي والثقافي أيام ابن خلدون، وابن الخطيب وغيرهم، فهؤلاء كان تعاملهم مع الرحلة بشكل سطحي، حيث أن ابن خلدون شكك في بعض مرويات ابن بطوطة معتمداً على الروايات المتداولة بين العامة من الناس في عصره، دون أن يبحث عن الحقيقة في الأصول والمصادر.

والحال نفسه يتكرر في الفترة الحديثة والمعاصرة، عندما نجد أن كل المشتغلين بالرحلة حتى من المحققين الأكاديميين ظلوا معتمدين على الطبعة الباريسية للرحلة رغم وجود ثلاثين مخطوطة للرحلة موزعة بين الخزانات والمؤسسات العلمية، ولقد أشاد الأستاذ التازي بالجهود العلمية لأولئك المستشرقين خاصة ما يتعلق

الهوامش:

- (١) التازي عبد الهادي، المغرب في الدراسات الاستشراقية (ابن بطوطة نموذجاً)، الندوة السادسة للجنة القيم الروحية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مراكش، شوال ١٤١٣هـ / أبريل ١٩٩٣م، ص ١١٤.
- (٢) التازي عبد الهادي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ٩، مطابع فضالة المحمدية، المغرب، ١٩٨٦، ص ٢٢٠.
- (٣) التازي، المغرب في الدراسات الاستشراقية، المرجع سابق، ص ١١٤.
- (٤) المرجع السابق، ص ١٦٦.
- (٥) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م، ص ٤٥٦.
- (٦) التازي، المغرب في الدراسات الاستشراقية، المرجع سابق، ص ١١٩.
- (٧) من أكثر المدققين في انتقاد رحلة ابن بطوطة من خلال كتابه: Ivan hrbeek, *The chronology of ibn battuta travels*, archiv orientalni.praha 1962.
- (٨) التازي عبد الهادي، مقدمة تحقيق رحلة ابن بطوطة، المجلد الأول، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص ١٢٥.
- (٩) التازي، مقدمة تحقيق رحلة ابن بطوطة، مج ١، مرجع سابق، ص ١٠٥ - ١٠٧.